المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين
(تقييم موضوعى)

من صور الخطأ التى وقع فيها كثير من المؤرخين والمفكرين أنهم خلطوا بين مسيرة الحضارة ومسيرة التاريخ، مطبقين الخطوط السياسية الفاصلة نفسها على التيار الحضارى، مع أن مسيرة الحضارة لا تخضع لتقلب الدول، فضلاً على سقوط دولة وقيام أخرى تنتمى إلى المدرسة العقدية والإشعاع الثقافى نفسه...

وأنا أعجب حقيقةً من هؤلاء المؤرخين الذين نظروا إلى سنة (٤١هـ) ـ التى قامت فيها الدولة الأموية ـ وكأنها منعطف جديد فى الحضارة الإسلامية!!

ترى: هل انتهى فى هذه السنة جيل الصحابة؛ الذين رباهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو انقرض التابعون؛ الذين تتلمذوا على يد التلامذة الأول للنبى محمد ﷺ؟

إن بعض الصحابة قد عاشوا إلى ما بعد العقد التاسع، أى بعد عام الجماعة بأكثر من نصف قرن كامل... أما التابعون فقد عاش بعضهم إلى ما بعد سقوط الدولة الأموية سنة (١٣٢هـ).

إن ما حدث هو أن أسلوب انتقال الحكم قد تغير من شورى مطلقة إلى شورى مقيدة؛ نتيجة لظروف معينة لا نتعرض لها فى هذا المقام... أما نهر الحضارة الإسلامية فقد ظل يشق مجراه... وظلت الأمة هى الأمة، والمبادئ هى المبادئ...

ونتيجة لتطورات معينة، وابتعاداً عن عصر النموذج القدوة، والانفتاح على حضارات متعددة، والحصول على ثروات طائلة؛ ظهرت تجاوزات هنا وهناك، كما تظهر فى كل المنعطفات والدول العظمى... وهى تجاوزات قامت الأمة بنقدها والتنديد بأصحابها...

إن (هاملتون جب) ـ وهو مستشرق لا يمكن وصفه بالدفاع عن تاريخ الإسلام ـ يومئ إلى طبيعة التغير فى نظام الحكم عند الأمويين، فيذكر أنه: «من قبيل التناقض أن يلصق الناس بالأمويين تلك التهمة الشائعة؛ وهى أنهم حَوَّلوا الخلافة إلى ملك، وهذا التناقض ذاته يوحى لنا بأنه ينبغى علينا ـ إذا شئنا أن نفهم الطبيعة الحقيقية للأزمة ـ أن ننفذ إلى ما وراء سطح الواقع بكثير، وأن نجتهد بصورة خاصة فى تحرير أنفسنا من عادة مؤرخى العرب؛ الذين ينظرون إلى العملية التاريخية على ضوء الأعمال الشخصية دون اعتبار منهم للظروف التى اكتنفت أعمال الأفراد، ورسمت حدودها، والقضية التى أحب أن أطرحها فى هذا المقام تتلخص فى أن الأمويين كانوا ـ إذا جاز لنا التعبير على هذا النحو ـ ضحية عملية ديالكتيكية داخل المجتمع الإسلامى»[1].

وإذا ما نظرنا إلى الخلافة الأموية[2] بهذه النظرة ـ غير السياسية ـ التى ترصد التطور الحضارى، وليس التعبير الفوقى؛ فإننا سنجد هذه الخلافة التى قُدر لها أن

---

(١) جب: دراسات فى حضارة الإسلام، ص: ٤٨، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م.

(٢) كنموذج للتحليل الموضوعى المنصف ـ غير الإسقاطى ـ نقدم هذا النص من كلام المفكر الإسلامى والمصلح الإمام بديع الزمان سعيد النورسىّ فى معالجة الصراع بين الإمام على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فى صفين، يقول الإمام النورسىّ: أمّا ما وقع من حرب بين الإمام على رضي الله عنه وسيدنا معاوية رضي الله عنه وأنصاره فى واقعة «صفين»؛ فهى حرب بين الخلافة والسلطنة (الملك الدنيوى)؛ أى أن الإمام علىّ رضي الله عنه (قد اتخذ أحكام الدين وحقائق الإسلام والآخرة أساسًا، فكان يضحى بقسم من قوانين الحكم والسلطنة، وما تقتضيه السياسة من أمور فيها إجحاف فى سبيل الحقائق والأحكام؛ أما سيدنا معاوية ومن معه، فقد التزموا (الرخصة الشرعية)، وتركوا الأخذ بالعزيمة؛ لأجل إسناد الحياة الاجتماعية الإسلامية بسياسات الحكم والدولة، فعدوا أنفسهم مضطرين فى الأخذ بهذا المسلك فى عالم السياسة، لذا رجحوا الرخصة على العزيمة فوقعوا فى الخطأ (انظر النورسىّ: المكتوبات، ص: ٦٨، نشر سوزلر ـ القاهرة).

(أى أننا نفهم من كلام النورسى أن الخلاف يمثل وجهتى نظر، وأن للمصيب أجرين وهو الإمام على وأتباعه، وللمخطئ أجراً وهو معاوية وأتباعه (ورضى الله عن الجميع).

تعيش فى التاريخ نحو قرن من الزمان، تواجه خلاله بقايا الإمبراطوريات المندثرة رومية وفارسية، وتؤصل لمؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية فى العالم الإسلامى الجديد، والحديث، عهداً بالبداوة والفكر الوثنى والرومانى السابق، وذلك مع وجود بعض التجاوزات، خضوعًا لظروف التطور التى ألمحنا إلى بعض جوانبها سابقًا، مما يؤكد وجهة نظرنا فى أن التغيير السياسى لا يرتبط بالتغير الحضارى.

إننا هنا نتساءل: هذه الجيوش الفاتحة التى ساحت فى معظم أقطار المعمورة، من حدود الصين والهند وحتى سبتة فى المغرب الأقصى وكوفادونجا فى جبال البرانس بإسبانيا... ألم تقم على أكتاف الجندى المسلم المجاهد الذى كان يمضى مخلصًا شبه متطوع أو نظاميًا وراء القادة الذين اختارهم بنو أمية؟... لقد أثبت هؤلاء أنهم مخلصون حقًا بصرف النظر عن النظام السياسى الذى انتقلوا إليه... ولقد نشروا الإسلام فى المغرب الأقصى والأوسط والأدنى وطرابلس وبرقة وإسبانيا والصين والهند وبلاد آسيا الوسطى وأفغانستان وغيرها...

وفى هذا العصر وقعت عملية التعريب، وتم تنظيم الدواوين، وسك العملة، وبدأت العلوم العربية والإسلامية تكتمل صورها!!

وإذا كنا قد استشهدنا برأى (جب) فى طبيعة الانتقال من الراشدين إلى الدولة الأموية؛ فإننا - ونحن نلقى ضوءًا وجيزًا على أبرز خلفاء هذه الدولة، الذين قاموا بالفتوحات وساعدوا التطور - نتابع استشهادنا بمؤرخ أوروبى آخر من كبار الدارسين للتاريخ الإنسانى كله، إيمانًا منا بأن شهادة هؤلاء قد تكون أكثر قابلية لدى المدرسة العلمانية؛ التى تسقط أحكامًا تعسفية غير متأنية على تاريخنا!!

إن (ول ديورانت) يقول:

«يجب علينا ألا نظلم معاوية، لقد استحوذ على السلطة فى بادئ الأمر؛ حيث عينه عمر - الخليفة الفاضل النزيه - واليًا على الشام، ثم بتزعمه الثورة؛ التى أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبره من «الأساليب السياسية» البارعة؛ التى أغنته عن

الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة . . . ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضبًا بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسرًا حاكمة جديدة»[1] .

«وكان يجلس للناس خمس مرات فى اليوم، وقد استؤنفت الفتوحات الإسلامية فى عهده بعد توقف، وكان يسمع المدح فى منافسه فى مجلسه؛ بل ويسمع بفضله عليه ولا يعاقب على ذلك . . .

أما عبد الملك بن مروان؛ فقد سار على خطى معاوية، وحاول أن يطبق سياسته الداخلية فى الجلوس للناس، وكان من فقهاء المدينة المعروفين، وقد احتج مالك فى الموطأ بعمل عبد الملك، وكان من فاتحى إفريقية قبل الخلافة، وقد استقرت قواعد الدولة فى عهده، وظهر طابعها العربى واستقلالها الحضارى .

أما ابنه الوليد الأول ففى عهده (واصل العرب فتوحاتهم فاستولوا على بلخ فى عام (٨٦هـ - ٧٠٥م) ، وكان الوليد مثلاً طيبًا للحكام، يُعنى بشؤون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب، ويشجع الصناعة والتجارة؛ بفتح الأسواق الجديدة ، وإصلاح الطرق، وينشئ المدارس والمستشفيات - ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية - وملاجئ للشيوخ، والعجزة، والمكفوفين، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس، ويجملها، وينشئ فى دمشق مسجدًا أعظم من هذه المساجد وأفخم، ولا يزال باقيًا فيها حتى اليوم»[2]

ولما جاء عمر بن عبد العزيز (٩٩ / ١٠١هـ-٧١٧ / ٧١٩م) أعاد سيرة الراشدين، واعتبر بإجماع الأمة خامس الراشدين، وأحدث عودة حميدة شعبية ورسمية للإسلام .

وقد حكم هشام الدولة حكمًا عادلاً ساد فيه السلم، وأصلح خلاله الشؤون الإدارية، وخفض الضرائب، وترك - بعد وفاته - بيت المال مليئًا بالأموال[3] .

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ١٣/ ٨١، طبع مصر، الطبعة الأولى .
(٢) المرجع السابق ١٣/ ٨٣ .
(٣) المرجع السابق ١٣/ ٨٣ .

فهؤلاء ـ كما نرى ـ (معاوية ، وعبد الملك ، والوليد، وعمر ، وهشام) خمسة من خلفاء بنى أمية ، حكموا نحو ثلاثة أرباع عمر الدولة ، وقدموا خدمات كثيرة للحضارة الإسلامية ، باعتراف مؤرخ أوروبى كبير ، يحاول أن يقترب من الإنصاف ، وقد كتب ديورانت ما كتبه ضمن رصد شامل للحضارة الإنسانية ، وليس فى دراسة مستقلة متخصصة ، ومع ذلك جاء فى كلام (ول ديورانت) ـ كما رأينا ـ قدر كبير من الإنصاف ضمن منظومة (قصة الحضارة) ، وذلك على العكس من كتابات العلمانيين الذين لم يحسنوا قراءة تاريخ الإسلام ؛ بل أغلب الظن عندى أنهم أو بعضهم لم يقرءوه أصلاً !!

وقد اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التى أنشئت فى عصر الراشدين ؛ مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط ، وجامع صنعاء الكبير ، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة ؛ مثل جامع دمشق ، والجامع الأقصى ، وقبة الصخرة ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع عقبة بن نافع فى القيروان ، كما جددوا المسجد النبوى فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وزادوا فى جامع عمرو بن العاص عدة مرات [1] ، وقد ازدهرت الحياة الفكرية فى العصر الأموى ، وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية والاجتماعية والرياضيات والفلك والطبيعيات[2] ، وكان من أهم العلوم الدينية : (القراءات ، والحديث ـ الذى دون فى عصرهم ـ وعلوم القرآن)[3] .

ولما كان العهد الأموى عهد فتوحات وتفاعل مع الحضارة المعاصرة ؛ فقد وقف الحكام وعلماء الأمة وقفة حضارية أصيلة فى وجه الأفكار والعلوم والنظم واللغات الوافدة ، وقد نجحوا فى وضع الضوابط والمناهج ، وأسس هذه العلوم ؛ التى تكفل التأصيل الصحيح ، والمواجهة الإيجابية ، والاستجابة المثلى للتحدى الفكرى .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الدولة العربية ، ص : ٤٣٦ ، وما بعدها ـ بتصرف ـ طبع الإسكندرية ، (١٩٨٢م).

(٢) المرجع السابق ، ص : ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ، ص : ٤٢٣ .

وكما نشأت علوم اللغة لمواجهة اللحن، فقد نشأت المذاهب الفقهية للاجتهاد فى الوقائع الجزئية التى تكاثرت، فظهر الإمام أبو حنيفة (٨٠ـ ١٥٠هـ)، والإمام مالك ولد سنة (٩٣هـ)، وقيل (٩٥هـ)، وتوفى سنة (١٧٩هـ) ـ رضى الله عنهما ـ وكذلك نشأ علم الحديث بفروعه الكثيرة والرائعة لمواجهة الوضع والوضّاعين.

وكان القضاء قائمًا على خير الوجوه الشرعية وأحكمها، فقد جرى معاوية بن صخر بجهده فى ملاحظة القضاء ورسومه على حدث وترتيب زمانه، جاريًا فى ذلك على سنن من تقدمه [١]؛ أى على سنن الراشدين.

وحقيقة أن الدولة العباسية لم تكن دولة فتوحات؛ لأسباب كثيرة: منها أنّ الأمويين قد تركوا لها ما يكفيها من الأرض؛ بل إنها كانت فى حاجة إلى جهد كبير لتحكم قبضتها على الأرض التى تحت أيديها، وكانت الدولة العباسية ـ بالتالى ـ تتجه إلى الداخل، وترعى ـ فى حدود المتاح للحكم ـ العلوم والآداب، وكان الشعب مشغولاً بصناعة الحضارة مطمئنّا، تهيأت له الفرص، ونشر العباسيون الرخاء أمام الناس لستة قرون لم يُر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم كما يقول (ول ديورانت)، وقد ازدهرت العلوم والآداب، والفنون ازدهارًا جعل آسيا الغربية لخمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة [٢].

ونال التعليم من العناية القدَح المُعَلّى والحظ الأوفر، ظهرت مراحله الأولية والثانوية والعالية، وحدث أن وضعت الحكومة هذه «المدارس الثانوية» تحت إشرافها، وتكفلت بالإنفاق عليها، وكان التعليم بالمجان، وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم فى بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات، وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية؛ ليقابلوا عالمًا كبيرًا أو مصلحًا مشهورًا، وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته فى بلده أن يسافر إلى مكة، أو بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، ليستمع فى واحدة منها أو

---

(١) أبو الحسن بن عبد الله النباهى الأندلسى: تاريخ قضاة الأندلس، ص: ٢٤، طبع دار الآفاق، بيروت ـ الطبعة الخامسة (١٤٠٣هـ).

(٢) ول ديورانت، قصة الحضارة ١٣/ ١٥٠.

أكثر من واحدة إلى كبار العلماء، وكان من الأسباب التى يسرت انتشار الأدب العربى فى بلاد الإسلام المختلفة وجعلته أدبًا دوليًا واحدًا، أن لغة التعليم والأدب فى جميع البلاد الإسلامية ـ مهما اختلفت أجناس أهلها ـ هى اللغة العربية؛ التى بلغت من سعة الانتشار ما لم تبلغه اللغة اليونانية [1].

وقد ساعد على انتشار الأفكار العربية والإسلامية أيضًا؛ أن العرب كانوا قد عرفوا الورق، وافتتحوا فى بغداد أول مصنع للورق عام (٧٩٤م) على يد الفضل ابن يحيى (وزير هارون الرشيد)، ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وإسبانيا، وفى الفترة نفسها وجد الورق فى مصر، وبدأ ينتقل إلى معظم العالم الإسلامى، وبالطبع فقد يسر هذا الاختراع تأليف الكتب فى كل بلد انتقل إليه.

وكانت معظم دروس الفقه والعقيدة فى العصر العباسى تعطى فى المسجد، والمستمعون على هيئة حلقة بين يدى المدرس، وكان يتخذ مكانه إلى جانب أسطوانة فى المسجد، مستنداً إليها بظهره إن أمكن، وقد أحصى المقدسى فى المسجد الجامع بالقاهرة ـ كما يؤكد آدم متز ـ وقت العشاء مائة وعشرة من مجالس العلم [2].

لقد حقق المنصور للدولة العباسية استقراراً كبيراً فى النواحى المالية والإدارية والقضائية، وبقية تنظيمات الجهاز الإدارى للدولة، واتبع المنصور أسلوب المركزية فى الحكم، وقد ساعده على ذلك وجود نظام دقيق للمراقبة؛ مكنه من معرفة ما يجرى فى الولايات عن طريق البريد، فقد كلف عمال البريد بمراقبة الولاة، والكتابة إليه عن عُمَّاله وعن الأسعار والأموال والقضاة، واهتم المنصور باختيار ولاته وعماله فى جميع أجهزة الدولة، من ذوى الأخلاق الفاضلة والديانة والأمانة، وخصص المنصور جزءًا كبيراً من وقته اليومى للنظر فى الكتب الواردة عليه من أنحاء الدولة.

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٥٠.

(٢) انظر المقدسى: أحسن التقاسيم، ص: ٧٣ وما بعدها، وفى القديمة ص: ٢٠٥، طبع مكتبة مدبولى ـ مصر، ففيه تفصيل لهذه الحركة العلمية النشطة.

كما اهتم بالشؤون الحربية وتنظيم الجيش، وأسند قيادة الجيش لشخصيات عربية، كما أن معظم الجند كانوا من العرب، أما الوزارة فلم يكن لها نفوذ كبير فى عهده، غير أنه جعلها نظامًا سياسيًا لها مراسيمها الخاصة، وقد تميز القضاء فى عهده بالتنظيم، وظهر المذهبان الفقهيان المالكى فى الحجاز والحنفى فى العراق[1].

أما الشرطة وهى تابعة للقضاء آنذاك، فقد حرص المنصور على متابعة أخبار أصحاب شرطته، وإنزال العقوبة بمن تجاوز حدود سلطته.

وكان المنصور أول من اهتم بالعلوم من خلفاء بنى العباس، وأول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية من كتب الفلك والرياضيات والطب والأدب، كما بدأ ازدهار التدوين فى عهده فى الفقه والحديث والتفسير والتاريخ وغيره، ومن أشهرها كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، وكتاب السيرة النبوية لابن إسحاق.

وكان جامع المنصور ببغداد - وهو أحدث مسجد جامع بها - أشهر مركز للتعليم فى الدولة الإسلامية، ويحكى أن الخطيب البغدادى لما حج شرب من ماء زمزم ثلاث شربات، وسأل الله - عز وجل - ثلاث حاجات أخذًا بقول النبى ﷺ: (ماء زمزم لما شُرِبَ له)، **فالحاجة الأولى:** أن يحدث بتاريخ بغداد، **والثانية:** أن يملى الحديث بجامع المنصور، **والثالثة:** أن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافى[2].

وقد جلس إبراهيم بن محمد نفطويه (المتوفى عام ٣٢٣هـ - ٩٣٥م) - وكان من أكبر العلماء بمذهب داود الأصبهانى - إلى أسطوانة بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها...

(١) موضى الرميح: الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور وسياسته الداخلية والخارجية، رسالة ماجستير بكلية الآداب للبنات بالدمام (١٤٠٩هـ)، (الخاتمة)، وانظر الذهبى: سيرة أعلام النبلاء ١٣/ ٣٠٢، وما بعدها، مطبعة الرسالة - بيروت.

(٢) انظر: أبى أصيبعة: طبقات الأطباء ١/ ٢٥، طبع بيروت، وانظر آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة دكتور عبد الهادى أبو ريدة ١/ ٢٩٦.

وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ، فقد كان أبو حامد بن حمد الإسفراييني المتوفى عام (٤٠٦هـ ـ ١٠١٥م) إمام أصحاب الشافعي، وكان يدرس بمسجد عبد الله بن المبارك ببغداد، وكان يحضر مجلسه ما بين ثلاثمائة وسبعمائة فقيه.

وأما أبو الطيب الصعلوكي الفقيه الأديب مفتي نيسابور، وهي مركز علماء خراسان، فيقال: إنه حضر مجلسه أكثر من خمسمائة طالب علم في عشية الجمعة الثالث والعشرين من المحرم (٣٨٧هـ ـ ٩٩٧م)، وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الجويني (ركن الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف) المتوفى عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) كل يوم ثلاثمائة من الائمة والطلبة[١].

وكانت المكتبات العامة، ومكتبات المساجد منتشرة يؤمها الدارسون، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم، وبلغت فهارس كتب المكتبة العامة بالري عشرة مجلدات، ولما دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة[٢].

ولقد استخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشوف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس، واستخدموا كروية الأرض أساسًا بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية؛ بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد، وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل، وهو تقدير يزيد بنصف ميل عن تقديرنا في الوقت الحاضر[٣].

ومع أن عصر المأمون يتعرض لنقد شديد؛ نظرًا لاستبداد المعتزلة فيه، وللوقوع في الترجمة الوافدة؛ التي أساءت إلى عناصر الأصالة مهما بذل في انتقائها وغربلتها، وعدم وجود ترجمة مضادة من العربية إلى اللغات الأخرى، إلا أن هذا العصر قد حفل بكثير من صور التقدم في شتى العلوم العقلية والنقلية...

---

(١) آدم متز: المرجع السابق ١/ ٢٩٧.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠.
(٣) المكان السابق.

الأمة فى خدمة الشريعة (نموذج)

ومع هذا ، ومع وجود الإيجابيات التى قام بها جهاز الدولة فإن الأمة المسلمة ـ كعادتها ـ لم تترك أمر الشريعة للحكومة وحدها ؛ بل جاهدت فى مجال نشر الإسلام الصحيح ، ومقاومة البدع الفكرية الوافدة ، واللصوص والمفسدين ؛ الذين انتهزوا فرصة الصراع على الحكم فى الدولة ، وعاثوا فى البلاد الفساد !! ويحدثنا التاريخ فى هذه الفترة عن حركة من هذه الحركات الإصلاحية الشعبية الرائعة .

فقد اشتهر أحمد بن نصر الخزاعى بأنه كان عالمًا ومعلمًا فى بغداد ، خصوصًا أيام المأمون حينما برزت الفتنة ، وبدأ المعتزلة ينشرون آراءهم القائلة بخلق القرآن ، فكان الخزاعى من أشهر من وقف فى هذه الأزمة ، وكان لأسرته مكانة خاصة لدى العباسيين ؛ نظرًا لمكانة جده ؛ حيث كان أحد النقباء للدعوة العباسية ، وبالتالى فقد كان أحمد بن نصر من أهل الوجاهة والرياسة فى بغداد ، كما صرح بذلك ابن كثير[1] ، وقد كان ابتداء شهرته فى بغداد سنة (٢٠١هـ) ، بعد قتل الأمين ببغداد سنة (١٩٨هـ/ ٨١٣م) ، وبقيت بغداد مسرحًا للنهب وللسلب ؛ حيث تأخر المأمون بخراسان ، واضطربت أحوال بغداد ، وكثر فيها اللصوص والدعارة ، وأهل الفساد ، فاجتمع حوله جماعة من الناس بايعوه ، وأخذوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وكان أتباعه يستمعون لأوامره ، وبالتالى ساعد على ضبط الأمور فى شرق بغداد ، إلى أن قدم المأمون إلى بغداد سنة (٢٠٤هـ) [2] ، فاختفى الخزاعى عندئذ ، وذكر المؤرخون أن الخزاعى ، وسهل بن سلامة كانا يتعاونان على هذا الأمر [3] ، وقد استمرت دعوة الخزاعى ما بين (٢٠١ ـ ٢٣١هـ) أى ثلاثة عقود .

---

(١) البداية والنهاية : حوادث سنة (٢٠٢هـ) .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، (حوادث سنة ٢٠٤هـ) .

(٣) الطبرى : المكان السابق ، ابن كثير : البداية والنهاية ، (حوادث سنة ٢٠٢هـ) .

ويصور الطبرى حركة الخزاعى الدعوية الإصلاحية؛ عندما يؤرخ لسنة (٢٠١هـ) فيقول: فى هذه السنة تجردت المتطوعة للنكير على الفساق ببغداد. . . وكان السبب فى ذلك فساق الحربية والشطار؛ الذين كانوا ببغداد والكرخ، فآذوا الناس أذى شديداً، وأظهروا الفسق، وقطع الطريق، وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرق. . . فلما رأى الناس ذلك وما قد أظهروا من الفساد فى الأرض، والظلم والبغى، وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، قام صلحاء كل ربض وكل درب، فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة، وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم، فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق، وصاروا لا يفعلون ما يفعلون من إظهار الفسق بين أظهركم.

وقد قام رجال من أهل بغداد بالدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعمل بكتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة نبيه ﷺ، وتبايعوا على ذلك، وأخذوا يشجعون الناس على التعاون، والتكاتف لصد أولئك المفسدين، ومنعهم من الاختباء، وقد كانت هذه الحركة الشعبية عامة وشاملة، دخل فيها الكثير من الناس، وكانت منظمة؛ بحيث يسجل فيها اسم من يريد التعاون معها ضد الفساق؛ الذين كانوا يعيثون فساداً فى بغداد، وقد تمكنت هذه الحركة ـ بانتظام ودقة ـ من العمل على منع اللصوص من العبث ببغداد وبأهلها، وأوقفوا ما كان يدفعه الناس من أموال لهؤلاء المفسدين مقابل عدم الاعتداء عليهم.

ويدل على تنظيم هذا العمل ودقته، ما ذكره الطبرى من أن رؤساء هذه الحركة قد جعلوا لها دواوين يسجل فيها اسم من بايع على العمل معهم[1].

فلما انتهت الفتنة بين المأمون والأمين، وعادت للحكومة هيبتها، وعاد لها سلطانها توقفت الحركة، وتركت الأمور لذويها من أهل الحكم.

---

(١) الطبرى: حوادث سنة (٢٠١هـ)، وما بعدها.

نماذج لخلفاء صالحين

ولئن كنا قد ألمحنا إلى بعض الخلفاء العظماء والمشهورين من آل العباس، من أمثال محمد المهدى، وهارون الرشيد؛ فما ذاك إلا أننا لا نريد تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين. . . كما أننا أيضًا عمدنا إلى تجاوز العصور المزدهرة غالبًا؛ حتى لا يُحتج علينا بأننا ركزنا على المشهورين الذين يمثلون - فى رأى المتحيزين ضد تاريخنا - الشذوذ.

ولهذا الالتزام فإننا لم نقف عند عمر بن عبد العزيز ونحن نتحدث عن بنى أمية، وأيضًا فإننا لن نقف عند محمد المعتصم العباسى (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٧٣٣ - ٨٤٢م) صاحب عمورية العظيم، ولن نقف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل؛ الذى قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذى وقع على أهل السنة.

وسوف نقفز لنقدم نموذجين من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) استغرق حكمهما نحو ستين سنة.

وهذا القرن الخامس - كما هو معروف - من القرون التى تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية.

فى هذه الفترة كان الخليفة فى بغداد (المقتدى بأمر الله العباسى)؛ الذى حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ - ٤٨٧هـ)، واحداً من خليفتين حكما فى النصف الثانى من القرن الخامس.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدى كان يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة[1]، ويصفه ابن كثير - أيضًا - بأن شمائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى، ولين الجانب، وكثرة العلم[2].

---

(١) ابن القلانس: ذيل تاريخ دمشق، ص: ١٢٦، طبعة بيروت.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٤٦، دار صادر بيروت.

وكان المقتدى حريصًا على أخلاق الناس ودينهم؛ ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرَّبَ الخمارات، ودور الزوانى والمغانى [1]، وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه [2]، وكان يهتم بمتابعة حركة النظام فى بغداد، وأقدم على اتخاذ قرار بتأمين الحاجات الضرورية للناس، وعلى رأسها المسكن، فأمر بشراء بيت لكل فقير يسكن فى كوخ، وقد راقب المقتدى حركة البيع والشراء، ومنع التلاعب بالموازين والأسعار[3].

وكانت المدارس الفقهية هى الظاهرة اللافتة للنظر؛ لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية، وعلم الحديث، والتفسير، والآداب، واللغة؛ لأنها جميعًا كانت مواد التدريس التى يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان انتشار المدارس بمدينة بغداد فى عصر السلاجقة هى الحدث الأكبر والأهم الذى حققته الحضارة الإسلامية، وتعتبر بحق قفزة كبيرة فى سلم التطور العلمى، بعد أن كان التدريس محصوراً فى المساجد وبعض الكتاتيب.

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية، ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة[4].

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة فى المجتمع الإسلامى بمدينة بغداد؛ فى أيام المقتدى بالله العباسى، وساهموا فى معظم الأحداث التى شهدتها المدينة، وازدهرت فى هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة: مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ومذهب الإمام الشافعى، ومذهب الإمام أبى حنيفة[5].

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدى فقد حكم بين سنتى (٤٨٧-٥١٢هـ)، ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق، يحبّ اصطناع

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية فى بغداد، ص: ١٦، دار النفائس-بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١١١.

(٣) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية فى بغداد، ص: ١٨.

(٤) المرجع السابق، ص: ٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص: ٦٠، ٦١.

الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات[1]، وكان مؤثراً للإحسان، حافظًا للقرآن، محبًا للعلم، منكراً للظلم، وكان مشكور المساعى لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض[2].

وكان جميل السيرة متصفًا بالعدل والإنصاف، ناهيًا عن قصد الجور والاعتساف، سمحًا جواداً، هينًا لينًا، حسن المعشر، قد حسن الله خُلُقَهُ وخَلْقه، وبره وأدبه، وجهه أبيض مشرب حمرة، تام الطول، لطيف المحاسن، نقش خاتمه «ثقتى بالله وحده»، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة، وكانت أيامه أيام سرور للرعية؛ فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخطّ، جيّد التوقيعات[3].

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية فى عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التى اتبعها الخليفة فى معاملة عامة الناس.

ويعدّ عهد المستظهر من أزهى العهود التى عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لأن المستظهر حرص على معاملتهم بالحسنى، وقرَّب زعماءهم.

نموذج لدور المرأة الحضارى

لم تكن المرأة المسلمة فى العصر العباسى بعيدة عن مجال صناعة الحضارة الإسلامية؛ بل كانت ركنًا أساسيًا من ركنى الحضارة الفاعلة، وكان لها وجود

---

(١) عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل، ص: ٥٣٥، طبعة دار صادر - بيروت، وانظر: محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص: ٨٥، ٨٦.

(٢) ابن الأثير: المكان السابق، ص: ٥٣٥، والمرجع السابق، ص: ١٨٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٣٦، وانظر: ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ٨/ ٢٩٤، حيدر آباد - الهند، سنة ١٣٥٨هـ.

فاعل فى داخل البيت؛ حيث تشرف على صناعة الإنسان وتحويله إلى إيجابى مؤمن مؤثر، كما كان لها وجود - أيضًا - فى المسجد والتعليم والفكر والثقافة والجهاد، فى الإطار الذى حددته شريعة الله، وثمة كتب كثيرة رصدت (أعلام النساء) ودور المرأة الحضارى، ونكتفى بنموذج نقدمه من حياة ابن عساكر (٤٩٩-٥٧١هـ) نفسه، ومن إطلالة عابرة على الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه (تاريخ مدينة دمشق).

كان بيت الحافظ أبى القاسم على، المعروف بابن عساكر معموراً بالعلم؛ كل من فيه بين حافظ ومحدث. لقد استطاعت شخصيته القوية، وروحه السمحة أن تفعل فى نفوس أبنائه وزوجه فعل السحر، كان ابنه القاسم بن على بن الحسن جمال الإسلام حافظًا، سار على خطوات أبيه، وأتم عمله فى التاريخ وبيّضه وسمعه على أبيه، وكانت زوجه وأم أبنائه عائشة بنت على بن الخضر أم عبد الله السلمية تهتم بالحديث وتسمعه من شيخات يحضرهن لها زوجها، ثم يسمع أبناؤها منها، كما يسمعون من والدهم، أما أبو الفتح الحسن بن على؛ فقد سمع على والده الحافظ أبى القاسم، وعمه الفقيه الصائن [1].

أما خارج البيت؛ فقد كان لابن عساكر شيخات تعلم على أيديهن، وقد ذكر منهن فى كتابه (شكر بنت أبى الفرج) سهل بن بشر، وخجسنة بنت إبراهيم أم الشمس الأصفهانى، وخجسنة بنت أبى المظفر بنت أبى الوفاء عمر (أم البهاء)، وشهدة بنت أحمد بن الفرج، وضوء بنت محمد الطويل (أم الكرام)، وفاطمة بنت محمد بن أحمد أم البهاء بنت البغدادى، وملكة بنت إبراهيم بن داود بن محمد سعيد القرطقى (العالمة الصوفية)، ونورسى بنت أبى الوفا عبيد الله بن محمود أم النجم [2].

ونحن نتوقع - بالطبع - أن هذه التلمذة على هؤلاء الشيخات كانت فى إطار الشريعة، وكانت إما فى الصغر، وإما فى إطار المسجد، أو التلقى غير المباشر،

(١) الحافظ أبو القاسم على بن الحسن الشافعى المعروف بابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، قسم تراجم النساء، بتحقيق سكينة الشهابى، ص: ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٣١.

ويكفى أن نرصد هذا الحشد الكبير الذى دونه ابن عساكر فى تراجمه للنساء؛ لنعلم كم كان دور المرأة فاعلاً فى العصور التى يصفها بعضهم بالجمود. . . ففى حرف الألف فقط أورد ابن عساكر هذه الأسماء:

أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية «ابنة خالة المصنف»، وأسماء بنت واثلة بن الأسقع الليثية، وأسماء - ويقال: فكيهة - بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس الأشهلية، أسماء امرأة كانت فى عصر أم الدرداء، آمنة - ويقال: أمة - بنت سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، آمنة بنت الشريد، زوج عمر بن الحمق، آمنة - ويقال: أمينة - بنت عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص، آمنة - أو أمية - بنت أبى الشعثاء الفزارية، آمنة بنت محمد بن أحمد، أم اليمن العجلية، آمنة بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية «ابنة خالة المصنف»، آمنة ذات الذئب، أمة العزيز بنت سهل الإسفراييني، أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية، أميمة بنت أبى بشر بن زيد بن الأطول - ويقال: زيد الأطول - أميمة بنت رقيقة - وهى أميمة بنت عبد، ويقال عبد الله بن بجاد بن عمير [1].

ولنا أن نقيس على حرف الألف بقية الحروف، ويكفى أن نعلم أن هذا الجزء الذى خصه لتراجم النساء من كتابه الموسوعى (تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها، وتسمية من حَلَّ بها من الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها) يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير، كما يجب أن نتذكر أيضًا أن هذا الكتاب يرصد حركة الحضارة فى مدينة واحدة مدينة دمشق، وأنه لا يرصد إلا الأعلام البارزات؛ اللائى استطاع ابن عساكر أن يصل إليهن. . . ولنا - بل يجب علينا - أن نضع عند تقويمنا، النساء اللائى كن فى بغداد؛ التى كانت تتصدر الحواضر الإسلامية فى العصر العباسى.

ولنا - بل يجب علينا - أن نضع الأندلس بقرونها الثمانية عند التقويم أيضًا. . .

---

(١) المرجع السابق، ص: ٥٩٣، ويلاحظ أنهن من عصور مختلفة، تبدأ من العصور الأولى للإسلام.

ولنتذكر كذلك الأدوار الحضارية؛ التى تعاورتها العواصم والحواضر الإسلامية الكبرى على امتداد العالم الإسلامى: المدينة، والقاهرة، والقيروان، وفاس، وبجاية، ودهلى وغيرها.

وكانت المرأة العابدة والعالمة، والمربية والمجاهدة موجودة هنا وهناك... تتحرك فى إطار الشريعة، وقد تخطئ - وفق سنن الله البشرية - كما يخطئ الرجال... لكنها كانت وستبقى أشرف امرأة عرفها تاريخ البشرية... إنها تموت ولا تبيع دينها أو تأكل بثدييها فى الأعم الأغلب!!

متى نكف عن ظلم تاريخنا؟!!

وهكذا... من خلال هذه الومضات من تاريخ المجتمع الإسلامى فى خلافتى الأمويين والعباسيين، وهى الومضات التى تشكل مجرد نماذج (غير منتقاة)؛ والتى تحتاج إلى مزيد من الاستقصاء للجوانب الأخرى؛ التى تتصل بالتفاعل الحضارى، القائم على شريعة الإسلام فى الخلافتين العظيمتين الأموية والعباسية... هكذا نكتشف الحجم الحقيقى للظلم الواقع على تاريخنا، كما نكتشف حجم التقصير الواقع من بعض المحسوبين عليه، وعن طريق هؤلاء الذين يطلقون أحكامًا عامة جزئية، سرعان ما تسقط عند البحث العميق.

وقد اكتشفنا من خلال النماذج المقدمة؛ كيف كان التفاعل إيجابيًا وقويًا من قبل كثير من الحكام، ومن قبل الشعب المسلم؛ الذى كان الحارس الأمين على شريعة الإسلام وحضارته.

وقد كان هناك تفاعل من نوع آخر لم نقف عنده كثيرًا، مع أنه انبثق عن التصور الإسلامى أيضًا، وإن كان يتصل ببعض الوسائل والتقنيات، وعلى سبيل المثال؛ فقد انتشرت البيمارستانات، وكانت أهم الأماكن التى يدرس فيها الطب؛ لكنها كانت محكومة بالشريعة أيضًا. فلم تكن الشريعة تجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة؛ إلا إذا تقدم إلى امتحان يعقد لهذا الغرض، ونال إجازة من الدولة.

كذلك كان الصيادلة، والأطباء، والمجبّرون يخضعون لأنظمة شرعية تضعها الدولة للتفتيش عن أعمالهم، وكان في بغداد وحدها (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري) ثمانمائة وستون طبيبًا مرخصًا.

وكان انتظام مالية الخلفاء سببًا في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير كتعبيد الطرق، وإنشاء الفنادق، والمساجد، والمشافي، والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولا سيما في بغداد والبصرة والموصل (. .)، واتسع نطاق الزراعة، ووسعت دائرة التعليم العام [1].

وخلال القرون الأربعة: (الثاني، والثالث، والرابع، والخامس الهجرية) بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية، ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلُّون عن عدد ما فيها من الأعمدة [2].

وفي ذلك كانت الدوافع شرعية في الأغلب الأعم؛ لأن الإسلام دين ودنيا، وعبادة وعمل، كما أن ذلك كان محكومًا بالضوابط الشرعية، إلا ما كان في دائرة الشذوذ. . . ذلك لأننا لا نستطيع أن نقول. . . إن بني العباس لم يخطئوا، ولكننا نقول إن ذلك يجب أن يقاس في إطار ظروفه التاريخية، وأن يتحرى فيه وجه الحق[3]، وأن يكون موضوع التحليل عادلاً وموضوعيًا.

إن (ديورانت) - مع كل ما أورده عن الدولة العباسية إيجابًا وسلبًا - لم يملك إلا أن يقول: «إنها كانت أقوى حضارة علمية إلى نهاية العصر العباسي، وبعده بستة قرون [4].

* * *

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠، وما بعدها، وقد ذكر الذهبي أن أحد علماء الحديث كان يجلس أمامه أكثر من ثمانمائة طالب، سيرة أعلام النبلاء ١٣/ ٣٠٢، وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) د. محمد رشاد خليل: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ، ص: ٢٥، ٢٦، ط/ ١٩٨٤م، القاهرة.

(٤) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٠، وما بعدها.